هذا الكتاب

نتناول فى هذا الكتاب مجموعة منتقاة من مذكرات اليساريين المصريين الذين عانوا أنواعا مختلفة من الاغتراب: اغتراب السجن، واغتراب الوطن، واغتراب الفكر، واغتراب الحالة النفسية، وقد جمع بين كل هذه الأنواع من الاغتراب التى فرضت عليهم سبب واحد هو تمسكهم بالفكر اليسارى.

وقد عاش هؤلاء معظم حياتهم يعانون من هذا الاغتراب شبه الدائم، وأتيحت لهم فترات ابتعدوا فيها عن الشعور بالاغتراب، لكن الاغتراب نفسه فرض نفسه عليهم، فكيف ليسارى مصرى أن يسعد تماما بمعيشته فى جامعة يابانية، أو مؤسسة صحفية تعمل فى لندن، أو فى براج، أو فى استكهولم؟! وكيف له أن يسعد حين يعمل فى شركة من شركات القطاع العام يحاول فى بعض أيامه أن يواصل فهمه اليسارى لكنه يقضى كل الأيام الأخرى فى عمل أقرب إلى الروتينية وإلى اليمينية أيضا؟ بل كيف يمكن له أن يعمل فى محيط علمى لا يؤمن بأحقية فكره فى الوجود من الأساس؟ وكيف لهذا أو ذاك أن يحس بطعم النجاة من السجن والاعتقال بينما هو يرى إمكانية حدوث ذلك قائمة بالليل والنهار؟ وكيف له أن يطمئن إلى تقارير الأجهزة الأمنية أو إلى موقفها على وجه العموم؟

ثم تتضاعف الغربة مرات كثيرة حين يجد اليسارى المصرى نفسه يعانى من انشقاقات اليسار، واتهام بعضهم لبعض بالعمالة للمباحث؟! ولا يقف الأمر فى الانشقاق والاتهام على الجماعات المنشقة بالفعل، لكنه يجد نفسه جاهزا حين يرمى الأستاذ على تلميذه بمثل هذا الاتهام على نحو صريح وعلنى! ولا يجد التلميذ وسيلة

لنفى التهمة عن نفسه، ولا لاسترضاء الأستاذ، وهكذا فقد يجد التلميذ البارز صدر أساتذته من غير اليساريين أكثر حنوا عليه من صدر أستاذه اليسارى.

هذه أمثلة سريعة لما تصدقنا المذكرات التى نتدارسها فى هذا الكتاب فى تعبيرها عنه تعبيرا يقترب من الحقيقة، ومن الواقع، ويعبر عنها بعبارات جميلة لا تقف عند حدود الجمال فى التعبير، وإنما تتعمد الصدق فى التصوير، والقص، والإفضاء بمكنونات نفوس عذبها الهوى، ولا يزال يعذبها، حتى بعد أن رحلت عن الدنيا الفانية.

***

والحق أن معاناة اليساريين المصريين كانت معاناة فريدة الطابع، وإن لم تكن سيئة الطالع، فقد بدأت بتجاهل بسيط، واشمئزاز أبسط على يد الزعيم سعد زغلول ووزارته الوطنية الأولى، وهو الذى صرح بأن وزارته غير معنية بالمسائل الاجتماعية، وذلك على الرغم مما أخذته جريدة «السياسة» على برنامجه فى الإفراط فى الحديث عن الأمور الداخلية على حساب قضية الاستقلال.

ثم سارت أمور اليسار هينة لينة، وإن لم تكن واعدة، حتى جاءت حملة صدقى باشا على اليسار المصرى فى ١٩٤٦ لتضيف اليساريين إلى قائمة الذين عانوا من بطش صدقى وجبروته، ومن الطريف أن صدقى باشا بطش باليساريين حين كان فى السن التى كفّ فيها عن البطش بخصومه!! وحين تعدى السبعين من عمره، ومنذ ذلك الحين بدأ اليساريون سجلهم «العابر» بالمباحث العامة، و«العامر» بالعنت والعذاب، حتى جاء عهد الثورة وعهد الرئيس جمال عبد الناصر فذاقوا ما ذاقوا مما يعرفه الخاصة والعامة، ومما لم تعرفه جماعة بشرية من مثلهم من قبل، وقضوا زهرة عمرهم فى معتقلات الثورة مغتربين عن الحياة، ثم خرجوا إلى الحياة فوجدوا حقيقة أخرى، فقد زايد عليهم عبد الناصر نفسه فى كل ما نادوا به من صور العدالة الاجتماعية.

ثم جاء عهد الرئيس أنور السادات، الذى زايد على موقفهم من الصراع العربى-الإسرائيلى، واعترف بما كان بعضهم ينادى بالاعتراف به!! وفاوض علنا فيما كان بعضهم يفاوض فيه سرا، لكنهم لم يستوعبوا ولم يكن هو فى ظنه فى حاجة إلى أن يستوعبهم، وهكذا أضاف إلى غربتهم عن نظام الثورة غربة أخرى جعلت بقاءهم فى وطنهم أمرا صعبا على نفوسهم.

وهكذا بقى من بقى مغتربا، واغترب من سافر أو هاجر مغتربا كذلك.

وبدأ عهد الرئيس محمد حسنى مبارك، وقد استقرت الأوضاع بحيث لا تسمح لليسار المصرى إلا بهذا الهامش الضئيل الذى لايزال بعض أصحابه يحرصون عليه، ولايزال بعضهم الآخر ينتقص منه أو يضيفه بإرادته الحرة الواعية.

***

ورغم كل هذا التطور تبقى الذكريات الجميلة عن الآمال المثالية، وعن التطلعات المشروعة، وعن لحظات الكفاح اللذيذ الذى دفع البعض فيها ثروته، أو عمره، أو حريته طواعية وحبا من أجل اليسار وقيم اليسار النبيلة عن طيب خاطر.

***

فى هذا الكتاب إذًا تصوير شيق لنفوس بشرية شاء حظها أن تعيش الأمل، وأن تفقده، وأن تعود إليه، وفيه تصوير شيق أيضا لآمال تحطمت، ولآمال بنيت، ولآمال تبددت!

وفيه قبل كل هذا حوار مع النفس يلومها فى بعض الأحيان، ويفخر بها فى بعض الأحيان الأخرى، ويعجب من شأنها فى كل الأحوال.

فى هذا الكتاب محاولة لفهم الحياة على أساس مادى، وفيه أيضا اعتراف غير مستتر بعجز التفسير المادى عن تفسير الحياة.

وفى هذا الكتاب إعلاء للواقع بما فيه من إعلاء للقيم والتطلع، وفيه إيحاء بالفخر بالانتصار على الزمن بقدر ما فيه من شك فى القدرة على الانتصار على هذا الزمن نفسه.

نرى ألفريد فرج وقد جعل حياته المسرحية تتوحد مع حياته السياسية من خلال رواية قصة كتابته لمسرحيته الشهيرة «حلاق بغداد» فى أثناء سجنه على ذمة قضايا الشيوعيين، وهو يعبر بهذه القصة عن كل ما يريد أن يعبر عنه من شعوره بغربة اليسار المصرى فى العهد الناصرى، ثم انفراجة هذه الغربة إلى حين.

ونرى رفعت السعيد الذى مارس الكتابة الصحفية والتاريخية والسياسية وتفوق فيها جميعا، يروى ذكرياته الطويلة، معبرا بكل ذكاء عن غربته هو نفسه داخل اليسار، على الرغم مما وصل إليه من رياسة حزب اليسار المصرح به من الحكومة، ومعبرا عن غربة التوجه الذى اختطه لنفسه فيما بين التوجهات العالمية لليسار والحركة الشيوعية، وهو ما أدى به إلى الانسحاب مبكرا من وظيفة مرموقة فى مجتمع يسارى دولى كى يمارس أفكاره على نحو ما اقتنع بها بعد ما كونها، وهو يحدثنا حديث المجتهد عن فهمه لأوجه الخلاف بين الفصائل اليسارية المختلفة، وعن سبب انحيازه إلى هذا التوجه أو ذاك من دون أن يسفه الآخرين أو يخونهم، وهو حين يكتب مذكراته وقد بلغ مرحلة النضج يحرمها مما كانت حفية به وقادرة عليه من حماسة الاختلاف لو أنها كتبت فى مرحلة مبكرة حين كان الخلاف هو الطابع المسيطر على الرأى وعلى العلاقات، وهو يحاول بذكاء شديد أن يتجاوز عن الآثار النفسية الرهيبة التى أحدثها موقف ثورة يوليو من اليسار طيلة عهدى عبد الناصر والسادات، لكنه مع ذلك لا يستطيع أن يتغاضى عما عاناه تاريخ حياته هو نفسه من عذاب نتيجة هذا الموقف المتعسف الذى وقفته الثورة واستمرت فيه طيلة عهدى الرجلين.

نرى محمد يوسف الجندى الذى تنازل عن ثروته للحزب الشيوعى، وقد أصبح يبحث عن العمل فى بلد آخر، ويجاهد من أجل لقمة العيش جهادا لا يلهيه عن إيمانه باليسار، وإن جعله يعانى من اليسار وأهله معاناة متصلة.

نرى رءوف عباس يساريا ينفى عن نفسه الإيجابية، ويصور نفسه واحدا من الأغلبية الصامتة، لكنه مع هذا يخرج عن صمته فينتقد فى عهد عبد الناصر أداء القطاع العام وفساده، وغياب الحرية السياسية، كما ينتقد فى عهود ما بعد عبد الناصر مظاهر أخرى متعددة من الفساد والجهل.

نرى أحمد عباس صالح يروى معاناته مع الثورة منذ أن تعاون معها، وحتى أصبح لفترة طويلة طريدا لبلاده، يعيش خارجها، ويخدم غيرها.

ونرى صليب إبراهيم يعيش تجربة السجن فيخرج منكفئا على نفسه، مكتفيا بالفخر

بمشاركته فى صحافة شركة قطاع عام مشاركات رمزية تروى بعض ذكريات عن زمن ولى . . وظن هو نفسه أنه لن يعود .

وفى كل هذه الأحوال فإننا نسعد بكل ما نقرأ، ونتعاطف مع كل ما نقرأ، ونحاول أن نفهم من كل ما نقرأ، وأن نتدارسه، وأن نطلع أهالينا على مواطن العبرة فيه، وعلى مواطن النقاط الغامضة فى تاريخنا المعاصر الحبيب إلى قلوبنا جميعا .

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يهدينى سواء السبيل، وأن يرزقنى العفاف والغنى، والبر والتقى، والفضل والهدى، والسعد والرضا، وأن ينعم علىّ بروح طالب العلم، وقلب الطفل الكبير، وإيمان العجائز، ويقين الموحدين، وشك الأطباء، وتساؤلات الباحثين .

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يمتعنى بسمعى وبصرى وقوتى ما حييت، وأن يحفظ علىّ عقلى وذاكرتى، وأن يجعل كل ذلك الوارث منى .

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يذهب عنى ما أشكو من ألم ووصب وقلق، وأن يحسن ختامى ، وأن يجعل خير عمرى آخره، وخير عملى خواتمه، وخير أيامى يوم ألقاه .

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يعيننى على نفسى وأن يكفينى شرها، وشر الناس، وأن يوفقنى لأن أتم ما بدأت، وأن ينفعنى بما علمنى، وأن يعلمنى ما ينفعنى ، وأن يمكننى من القيام بحق شكره وحمده وعبادته فهو وحده الذى منحنى العقل، والمعرفة، والمنطق، والفكر، والذاكرة، والصحة، والوقت، والقدرة، والجهد، والمال، والقبول . وهو جلّ جلاله الذى هدانى، ووفقنى، وأكرمنى، ونعّمنى، وحبب فىّ خلقَه، وهو وحده القادر على أن يتجاوز عن سيئاتى وهى - بالطبع وبالتأكيد - كثيرة ومتواترة ومتنامية . فله سبحانه وتعالى - وحده - الحمد، والشكر، والثناء الحسن الجميل .

د . محمد الجوادى